الشَّيطانُ وَالجنُّ

(رؤيةٌ قرآنيةٌ)

السيد مصطفى مكة

الجامعة الاسلامية/ بيروت - لبنان

فحوى البحث

بحث مجمل حول موضوع الجن والشيطان كعدوّ يلازم الانسان منذ أن خلق الله – سبحانه – آدم عليه السلام الى يوم القيامة.

يبدأ البحث بتعريف الشيطان والجن لغةً واصطلاحا ثم يُعرّف القاريء حقيقة هذين المخلوقين. ثم يفرد الحديث عن الشيطان وعمله وسياسته منذ أن عصى ربه بالامتناع عن السجود لآدم وطلب الخلود في الدنيا لاغواء الناس الا من رحم الله.

ويغوص الباحث في بيان الأساليب التي بها يغوي الانسانَ ضعيفَ الايمان حتى يوقفه على ارتكاب المعصية وكيف انه (الشيطان) يتبرأ منه أخيراً بدعوى انه (يخاف الله رب العالمين) ولم يبتعد السيد الباحث عن الاستشهاد في كل ما يورد بآي القرآن الكريم وكتب العقائد والتفسير والرواية المعتبرة.

مقدمة:

إنّ الإشكالية الأولى و الرئيسة من هذا البحث إنما هي تمثُّل الشيطان للإنسان، فهل الشيطان قادر على التمثُّل للإنسان؟ و التمثُّل هو الظهور بصورة إنسان من دون أن ينقلب الشيطان حقيقة إلى إنسان و مثال على التمثل ظهور جبريل لمريم في صورة بشر سوي، و تمثل الدنيا أمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام بصورة المرأة الحسناء.

فهل هذا الشيطان قادر أيضاً على الظهور أمام الانسان بصورة انسان؟. و إذا كان كذلك فكيف يتّم هذا التمثُّل؟. و كيف تكون له القدرة على ذلك؟.

فمسألة تمثُّل الشيطان كانت هي الإشكالية الرئيسة في هذا البحث، إلاّ أنه من خلال معالجة هذه الإشكالية، بمراجعة القرآن الكريم والمصادر والمراجع المختصة بهذا الموضوع، نجد أنفسنا عاجزين عن معالجة هذه الاشكالية والتحدث عنها بشكل واضح وعلمي ومنطقي ومعالجتها على طريقة بحث علمي وذلك لما يحتاج اليه هذا البحث من مقدمات فلسفية ليست بحوزتنا العقلية.

إلاّ أنّ هذا التراجع في الاشكالية الرئيسية الى كونها اشكالية فرعية، لم يغير من العزم على تناول موضوع يتحدث عن الشيطان، نظراً لأهمية هذا الموضوع، فأصبحت الإشكالية الرئيسية هي: ما هي حقيقة الشيطان وسياسته مع الإنسان؟.

أهمية الموضوع:

تكمن أهمية هذا الموضوع -الشيطان- في التعرف على هذا المخلوق العجيب والشرير الذي يلازم الإنسان طوال حياته وينصب له العداء، ويرمي له شباك الشرك والضلال والانحراف عن الصراط المستقيم.

وكما تؤكد جميع الدراسات في موضوع المواجهات والحروب ومقاومة الاعداء، تؤكد على ان الانتصار على العدو أياً كان لا يمكن أن يتحقق إلا بعد التعرّف على العدو حقَّ المعرفة ومعرفة أساليبه وخطواته وآثاره وخطره وكل حركاته، هذا اذا كان العدو عدوا في هذه الدنيا ويقف خطره عند هذه الدنيا وفي سنين قصيرة يعيشها الانسان، فكيف اذا كان

العدو عدواً في دنيانا وآثاره في آخرتنا؟.

ومما تجدر الاشارة اليه ان هذا الموضوع يمتلك من الاهمية بقدر ان جميع ائمة اهل البيت عليهم السلام قد اشاروا اليه وحذروا منه فضلا عما اشار اليه القرآن الكريم والسنة النبوية، فنهج البلاغة أمعن في وصف إبليس وأتباعه، والأئمة الأطهار عليهم السلام استعاذوا بالله من شيطنته وهذا يظهر واضحاً جلّياً في أدعيتهم عليهم السلام ولاسيما في أدعية الصحيفة السجادية للإمام زين العابدين عليه السلام.

اولاً: الشيطان والجن:

١. تعريفات أولية:

١. الجن:

لغة: جنن: جنّ الشيء -يجنه جناً ستره، وكل شيء ستر عنك فقد جُنّ عنك، وجنّه الليل -يجنّه جنا وجنو.. واجنه ستره[١].

اصطلاحاً: هي موجودات ذات شعور وإرادة ومكلّفة ومستورة عن حواسنا بحسب طبعها والجن هم جيل رقاق الأجسام خفيفة على صورة مخصوصة بخلاف صورة الإنسان والملائكة فإن الملك مخلوق من النور والإنس من الطين والجن من النار[٢].

٢. الشيطان:

الشيطان من شطن، والنون فيه أصلية أي تباعد، ومنه بئر شطون وشطنت الدار وغربة شطون، وقيل بل النون فيه زائدة عن شاط يشيط احترق غضباً، فالشيطان مخلوق من النار كما دلّ عليه ﴿ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴾ ولكونه من ذلك اختص بفرط القوة الغضبية والحمية الذميمة وامتنع من السجود لآدم. قال أبو عبيدة: الشيطان إسم لكل عارم من الجن والانس والحيوانات[٣].

٣. ابليس:

ابليس لعنه الله مشتّق منه لأنه ابلس من رحمة الله[٤] وسمي ابليس ابليساً نسبة

(١) ابن منظور، لسان العرب، الطبعة الثالثة، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، لبنان ١٤١٣ هـ، ج٢، ص٣٨٥.

(٢) الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، الطبعة الاولى، دار المعرفة، بيروت ١٤٠٦ هـ، ج ١٠، ص ٥٥٣.

(٣) الراغب الاصفهاني، مفردات الفاظ القرآن، الطبعة الاولى، الاميرة، بيروت، ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠ م، ص ٣٦٣.

(٤) ابن منظور، لسان العرب، لسان العرب، مادة: بلس.

الى كلمة أبلس: أي يئس وندم وأبلس من رحمة الله: أي يئس من رحمة الله وندم، قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ [سورة الروم: ١٢].

وفي الميزان: ان ابليس لعنه الله موجود مخلوق ذو شعور وارادة يدعو الى الشر ويسوق الى المعصية كان مرتبة مشتركة مع الملائكة غير متميز عنهم الا بعد خلق الانسان وحينئذ تميز منهم ووقع في جانب الشر والفساد، واليه يستند نوعا من الاستناد انحراف الانسان عن الصراط المستقيم وميله الى جانب الشقاء والضلال، ووقوعه في المعصية والباطل...وان لإبليس اعوانا من الجن والانس وذرية مختلفي الانواع يجرون بأمره اياهم ان يتصرفوا في جميع ما يرتبط به الانسان من الدنيا وما فيها بإظهار الباطل في صورة الحق وتزيين القبيح في صورة الحسن الجميل.

وهو يتصرف في قلب الانسان وفي بدنه وفي سائر شؤون الحياة الدنيا من اموال وبنين وغير ذلك بتصرفات مختلفة اجتماعا وانفرادا وسرعة وبطئاً، وبلا واسطة ومع الواسطة والواسطة ربما كانت خيرا او شرا وطاعة او معصية.

ولا يشعر الإنسان في شيء من ذلك بهم ولا أعمالهم بل لا يشعر إلا بنفسه ولا يقع بصره إلا بعمله فلا أفعالهم مزاحمة لأفعال الإنسان ولا ذواتهم وأعيانهم في عرض وجود الإنسان غير أنَّ الله سبحانه اخبرنا أنّ إبليس من الجن وأنهم مخلوقون من النار، وكأنَّ أول وجوده وآخره مختلفان[٥].

٤. التمثُّل:

ان معنى تمثل شيء لشيء في صورة كذا وتصوره عنده بصورته وهو هو لا صيرورة الشيء شيئا آخر فتمثل المَلَك بشراً هو ظهوره لمن يشاهده في صورة الانسان لا صيرورة المَلَك انسانا، ولو كان التمثل واقعا في نفسه وفي الخارج عن ظرف الادراك كان من قبيل صيرورة الشيء شيئاً آخر وانقلابه إليه لا بمعنى ظهوره له كذلك[٦].

(٥) الطباطبائي، محمد حسين (سيّد): الميزان في تفسير القرآن، الطبعو الاولى، مؤسسة الاعلمي للمطبوعات، بيروت، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧ م، ج ٨، ص ٤٥.

(٦) الطباطبائي، الميزان (م. س)، ج ١٤، ص٣٦.

ان التمثل هو ظهور الشيء للانسان بصورة يألفها الانسان وتناسب الغرض الذي من أجله الظهور كظهور جبريل لمريم في صورة بشر سويّ... وكظهور الدنيا لعلي عليه السلام في صورة امرأة حسناء لتغرّه[٧].

٥. النار:

النار تقال للهيب الذي يبدو للحاسة.. وللحرارة المجردة ولنار جهنم.. ولنار الحرب.. وقال بعضهم: النار والنور من أصل واحد وكثيراً ما يتلازمان لكن النار متاع للمقوين في الدنيا والنور متاع لهم في الآخرة[٨].

والنار جوهر مضيء حار محرق واصله النور يقال نار وانار واستنار[٩].

٢. في الأدلة النقلية على وجود الجن والشياطين:

من اراد الرجوع الى القرآن الكريم واستخراج الآيات التي تتحدث عن الجن والشياطين، فان القرآن الكريم يحتوي على عدد كبير من هذه الآيات، إذ ان الله سبحانه وتعالى اراد ان يكشف للانسان عن عدوه ويحذره منه ويبين له شدة عداوته للانسان وكرهه لبني البشر واصراره على اغوائهم واضلالهم حتى ان الله سبحانه وتعالى قد انزل في كتابه الكريم سورة قرآنية كاملة باسم الجن، وما ذلك الا لأهمية هذا الموضوع وخطورة هذا المخلوق القرين للانسان والملازم له منذ اللحظة الاولى وحتى انتهاء حياته.

لذلك فلن نقف على جميع الآيات القرآنية الدالة على وجود الجن والشياطين انما نقتطف بعض الآيات، فمن آياته قوله تعالى:

- ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ [سورة الاحقاف: ٢٩].
- ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ﴾ [سورة البقرة: ١٠٢].
- ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ [سورة سبأ: ١٢].
- ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَـٰرِيبَ وَتَمَـٰثِيلَ﴾ [سورة سبأ: ١٣].
- ﴿يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن

(٧) المصدر نفسه، ص ٣٩.
(٨) الراغب الاصفهاني، مفردات الفاظ القرآن، ٦٩٩.
(٩) الطبرسي، مجمع البيان، (م. س)، ج١ ص١٤٤.

﴿تَنفُذُواْ﴾[سورة الرحمن: ٣٣].

-﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝٦ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ﴾ [سورة الصافات: ٦ -٧].

هذا على صعيد الايات القرآنية اما على صعيد الروايات والاخبار فكثيرة ايضا ولا تكاد تحصى فمنها ما اشتهر وبلغ مبلغ التواتر من خروج النبي ﷺ ليلة الجن وقراءته عليهم ودعوته اياهم الى الاسلام وما اشتهر من خروج امير المؤمنين عليه السلام ومحاربتهم وما اشتهر ايضا من مخاطبة الثعبان امير المؤمنين عليه السلام في مسجد الكوفة. ومنها قوله ﷺ: «إنّ الشيطان ليجري من الانسان مجرى الدم»[١٠]. وقوله ﷺ: «ما منكم إلا وله شيطان».. الحديث.

ومنها ما رواه ثقة الاسلام محمد بن يعقوب الكليني عن ابان بن عثمان عن ابي عبد الله عليه السلام قال: «شكى اليه رجل، عبث أهل الارض بأهل بيته وبعياله فقال عليه السلام: (كم سقف بيتك، فقال، عشرة أذرع، فقال: أذرع ثمانية أذرع) اكتب آية الكرسي فيما بين الثمانية إلى العشرة كما تدور، فإن كل بيت سمكه أكثر من ثمانية أذرع، فهو محتضر يحضره الجن يكون فيه يسكنه»[١١].

- ماهية الجن:

لقد ذكر القرآن الكريم الجن في آيات عديدة منه، بل أفردت سورة بكاملها باسم سورة الجن، ومما يستفاد في هذه السورة ومن الآيات المتفرقة عن الجن، إن الجن نوع من الخلائق المستورين عن حواسنا ذوات شعور وإرادة ومكلّفة من قبل الله سبحانه وتعالى.

أما حقيقة الخلقة ومادتها، فما نستفيده أنهم مخلوقون قبل الانسان ومادة خلقهم الاولى هي النار، كما أن المادة الأولى لخلقة الإنسان هي التراب، قال تعالى: ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ [سورة الحجر: ٢٧]. والسموم: الريح الحارّة أخذ من دخولها بلطفها في مسام البدن[١٢].

(١٠) المجلسي، محمد باقر: بحار الانوار الجامعة لدرر أخبار الائمة الاطهار، الطبعة الثانية، مؤسسة الوفاء، بيروت، ١٩٨٣ م، ج٦٣، ص٢٦٨.

(١١) الكليني، محمد بن يعقوب: الفروع من الكافي، الطبعة الاولى، دار الكتب الاسلامية، طهران، ج ٦، ص٥٢٩، ح٣.

(١٢) الطبرسي، مجمع البيان (م. س)، ج٦ ص١٢٩.

هذا في أصل الخلقة والمادة الاولى، أمّا هل استمر هذا النوع على هذه المادة أم مرّ في مراحل تطور كما النوع البشري الذي انتقل من المادة الاولى -الصلصال- وأخذ يتطور إلى نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم... إلى أن ظهر على هذا الظهور الأخير والخلق القويم، فإنَّ هذا التطور والإنتقال بالمراحل بالنسبة إلى الجن غير واضح لدينا ولم يتعرض القرآن الكريم الى أية إشارة تدل على التغّير والتطور، إنما كل ما يمكننا ان نعرفه ونستفيده من الآيات الكريمة هو وجود النسل والذرية لإبليس نسبة الموت إليهم كذلك، كما في قوله تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى﴾[سورة الكهف: ٥٠]. و ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾[سورة فصلت: ٢٥]، وكذلك كيفية التوالد وحصول الذرية فغير واضح لدينا، فهل هو بطريق التناسل المعهود بيننا أو بنحو البيض والأفراخ أو بنحوٍ آخر لا سبيل لنا إلى فهمه؟. فهذا مجهول لدينا، والمعروف أنَّ فيهم ذكوراً وإناثاً يتكاثرون، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ [سورة الجن: ٦].

ويذكر القرآن الكريم أنّ للجن شعوراً وإرادة وأنهم قادرون على حركات سريعة وأعمال شاقّة كما ورد في قصة سليمان عليه السلام وتسخير الجن له وقصة بلقيس، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سورة سبأ: ١٢ -١٣] وفي قصة بلقيس قال تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ﴾[سورة النمل: ٣٨ -٣٩].

وهذا ان دلّ على شيء فهو يدلّ على ما تمتلكه هذه المخلوقات العجيبة النارية من قوة وقدرة عالية وسرعة في الحركة لا يستهان بها، وعلى قدرة هذا العفريت بالاتيات بالعرش في هذه المدة وانه امين على ما فيه من الذهب والجواهر.

أما في أقسام الجن وأصنافهم، فقد ذكر أنّهم مكلفون، فهم والإنس على

حد سواء: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [سورة الذاريات: ٥٦] وهذا التكليف يقتضي التمييز بينهم فمنهم المؤمنون ومنهم الكافرون، ومنهم الصالحون ومنهم الطالحون، ومنهم مسلمون وآخرون جائرون ظالمون خارجون عن الطريق، كما في قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴾[سورة الجن: ١٤] وقوله تعالى: ﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّـٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ﴾[سورة الجن: ١١] بل من الجن من أخذ على عاتقه الدعوة الى الله سبحانه وتعالى والإيمان به، حيث أخذوا يأمرون الفساق من الجن بإجابة دعوة الله والايمان بالله سبحانه بعد العجب الذي سمعوه من القرآن الكريم ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَـٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَـٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَـٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ ﴾ [سورة الاحقاف: ٢٩ -٣١].

- ماهية الشيطان:

الشياطين من حيث الماهية والخلقة ومادة الوجود هم من سنخ الجن وهي مخلوقات مستورة عن الحواس، ذات شعور وإرادة، وأصل خلقتها النار كما الجان.

وهي كذلك تتوالد وتتناسل وتتكاثر ولها ما للجن من أمور الخلقة والذرية والموت وتنقسم على نوعين: شياطين الانس وشياطين الجن وهذا ما نستفيده من بعض الايات القرآنية كما في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴾ [سورة الناس: ٥ -٦] وقوله ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَـٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ﴾[سورة الانعام: ١١٢].

والشياطين من الذين يسترون عن الابصار مأخوذ من الجن أي الستر، وانّ للشيطان اتباعا وجنودا قادرين على رؤية بني البشر والدخول والتوغل في صدورهم، حيث جعلوها مساكن لهم للوسوسة والنزغ وغيرها من مراحل الشيطنة، إلا أنّ الإنسان غير قادر على

رؤيتهم ومشاهدتهم أو الشعور بهم لأنها أجسام لطيفة شفافة رقيقة لا ترى بالعين المجردة وهي من المجردات التي لا يمكن للمادة النظر إليها والإطّلاع عليها، على خلاف الأمور المجردة القادرة على اختراق المادة واكتشاف عالم المواد والحديث عنها في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾[سورة الاعراف: ٢٧].

الحكمة من خلق الشياطين:

إن الشياطين هم مبدأ الشرور وأصلها، ومنشأ المعاصي وروحها، وإليهم يستند، نوعاً من الاستناد، انحرافُ الانسان عن الصراط المستقيم وميله الى جانب الشقاء والضلال، ووقوعه في المعصية والباطل.

وحقيقة الشيطان جوهر نفساني فاعل الشر، مبدأ الغلط في الاعتقادات، والفسوق والعصيان في الاعمال، منشأ الوسوسة والمكر والخديعة، وإراءة أشياء لا حقيقة لها، وإبراز الباطل في صورة الحق[١٣].

فإذا علمت ذلك، فكيف خلق الله سبحانه وتعالى هذا المخلوق، وهل يمكن القول إن الله خلق الشر، وإنّ خلقته شر صادر من قبل الله تعالى، مع العلم بان المقرر في محله والثابت في موضعه ان الله تبارك وتعالى لا يصدر منه إلا الخير وكل شيء في أساس خلقته خير محض وفي كل مخلوق حكمة ومصلحة لولاها لما وجد، لاستحالة العبث والقبح في فعله والاهمال والتعطيل في ايجاده.

فما الحكمة إذاً من خلق الشياطين وما هي الفوائد الراجعة على الصنف البشري والوجود بشكل عام على الرغم من الأضرار والسيئات والمعاصي البارزة في ظاهر هذا المخلوق وحقيقة وجوده؟.

إنّ الحكمة في خلق الشياطين التي هي مبدأ الشرور وأصلها، يمكن معرفتها وتحقيقها من خلال الإلتفات الى هذا العالم والوجود بكلِّه والنظر إلى جميع هذه الموجودات التي من حولنا فمن دقَّق النظر في هذا الوجود لعلم أن الكون مشتمل على جزئيات متفاوتة متمايزة عن بعضها البعض وليست هي حقيقة واحدة بسيطة في المستوى والمضمون.

(١٣) الشيرازي صدر الدين: مفاتيح الغيب، الطبعة الاولى دار المحبة البيضاء، بيروت، ١٤٣٢ هـ/ ٢٠١١ م ص ٢٤٩.

وهذا التفاوت ضروري جداً بين أجزاء العالم والوجود ولولا وجود التفاوت لانتفت الحاجة وزال الدّاعي لخلق هذا الكون.

فلولا الشر والفساد والتعب والفقدان والنقص والضعف وأمثالها في هذا العالم لما كان للخير والصحة والراحة والوجدان والكمال والقوة مصداق، ولولا الشقاء لم تكن السعادة ولولا المعصية لم تتحقق الطاعة ولولا القدح والذّم لم يوجد حسن ولا مدح ولولا العقاب لم يحصل الثواب ولولا الدنيا لم تكن الآخرة.

فإذا لم يكن هناك دافع يدفع الانسان إلى أن يفعل الشر ولا يقدر أساساً على فعل المعصية فلا معنى اذا لأمره بالطاعة والامتثال واذا كان صدور الطاعة من الإنسان أمراً ضرورياً فيكون أمره بالطاعات وإرسال النبوات والرسالات السماوية أمراً عبثاً ولاغياً لا فائدة منه.

إذن لا بد أن تكون في سريرة الإنسان دعوة إلى الشر ولا بدَّ أن يكون بإمكان الإنسان أن يأتي بالمعاصي كما أن بإمكانه أن يأتي بالطاعات حتى يأتي قوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [سورة الانسان: ٣] و ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [سورة البلد: ١٠].

فمن هنا ينكشف ان وجود الشيطان الداعي الى الشر والمعصية من اركان نظام العالم الانساني، فكم من عدو خبيث الذات ينتفع الانسان من عداوته اكثر مما ينتفع به من محبة الاصدقاء، فان المحبة مما يورث الجهل بعيوب الحبيب والعمى عن معاينة معايبه وسماع مثالبه.

فإن لوجود الأعمال الشيطانية في العالم منافع عظيمة، ومن فوائد الآلام والمحن والشدائد التي تصل إلى العبد من أهل الظلم والجور، أنه يوجب له سرعة الرجوع إلى بارئه واللحوق بأوليائه الماضين وترك الإخلاد إلى الأرض والاجتناب من معاشرة أهل الدنيا لما يرى من أبناء الزمان مما يزعجه عن الخلق ويملّه عن الدنيا، وينفّر طبعه عنهم ويفرّ إلى الله الواحد فراراً من الدنيا وما فيها وتقرباً اليه تعالى وملكوته الأسنى[١٤].

(١٤) الشيرازي، مفاتيح الغيب، الطبعة الاولى، (م. س)، ص٢١٩.

ثانياً: الشيطان والإنسان:

١. الشيطان قرين الإنسان:

لقد كان الشيطان مخلوقاً غير مميز عن سنخ الملائكة، إذ كانوا يعدّونه واحدا منهم، وكان اسمه -لكثرة عبادته-طاووس الملائكة فما ان خلق الله سبحانه وتعالى آدمعليه السلام (الإنسان) وظهر وجود الجنس البشري على صفحة الكون حتى بانت خلقته وظهرت كوامنه وتميَّز عن الملائكة بعدم السجود والانقياد والطاعة لله سبحانه وتعالى، إذ يذكر القرآن الكريم هذه القصة ويعرض مدى تكبر الشيطان وغروره، حيث يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [سورة البقرة: ٣٤].

عندها أصبح الإنسان محفوفاً بمخلوق يهدده ويخاصمه ويؤذيه ويعاديه منذ ولادته وحتى وفاته ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾ [سورة الاسراء: ٥٣]، ﴿ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴾ [سورة الفرقان: ٢٩]، ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ [سورة فاطر: ٦].

وبهذا أصبح الشيطان ملازماً للإنسان بعد أن طلب من الله سبحانه وتعالى غواية البشر فأذن له الرحمن -لحكمة قد بيَّناها-فقال الشيطان: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [سورة الحجر: ٣٩].

وهناك الكثير من الروايات التي تشير وتؤكد ملازمة الشيطان للانسان، منها:

- قول رسول اللهصلى الله عليه وآله: «إنّ الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم في العروق»[١٥].
- وعن ابي عبد اللهعليه السلام: «ما من قلب إلا وله أذنان على إحداهما ملك مرشد، وعلى الأخرى شيطان مفتن هذا يأمره، وهذا يزجره، الشيطان يأمره بالمعاصي، والملك يزجره عنها وذلك قول الله عزّ وجلّ: ﴿ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾[١٦]».

(١٥) المجلسي، محمد باقر: بحار الانوار الجامعة لدرر اخبار الائمة الاطهار، الطبعة الثانية مؤسسة الوفاء، بيروت، ١٩٨٣، ج٦٣، ص٢٦٨.

(١٦) المصدر نفسه، ج٦٣ ص٢٠٥.

وهذا يدل على شدة ملازمة الشيطان للانسان والتصاقه به، فهو له قرين، يرافقه من ساعة ولادته حتى آخر لحظة من حياته فلا يفارقه ابدا، ولا يتركه لحظة، انما يغلّق عليه ابواب العبادات ويمنعه من الطاعات ويأمره بالمعصيات، وليس الشيطان واحدا، وانما هي شياطين متعددة وجنود مجندة وان لكل انسان شيطانا يخصه، كما دلّت على ذلك الاخبار حيث يقول رسول الله ﷺ: «ما من أحد الا وقد وكل به قرينه من الجن قالوا: واياك يا رسول الله؟. قال واياي الا ان الله اعانني عليه فاسلم فلا يأمرني الا بخير»[١٧].

٢. تمثل الشيطان امام الانسان:

قبل الحديث عن إمكانية تمثُّل الشيطان للإنسان او عدم إمكانيته وقدرته على ذلك، وقبل الحديث عن كيفية التمثل، لا بد من الإشارة الى أن الشياطين على قسمين: شياطين الانس وشياطين الجن، وهذا التقسيم المستفاد من القرآن الكريم، ومن قوله تعالى ﴿ٱلَّذِى يُوَسۡوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ [سورة الناس: ٥ -٦] وهذه الآية لهي في غاية الصراحة والوضوح على أن هناك شياطين من الإنس وبطبيعة الحال هذه الشياطين لا تحتاج الى التمثل، فهي ظاهرة ماثلة أمام باقي أفراد النوع الانساني.

إذاً، بقي الحديث عن شياطين الجن فهل هي قادرة على التمثل أمام الإنسان؟. ومع قدرتها، فكيف يكون التمثّل؟.

وبعد أن أوضحنا في (أولاً) ماهية الشيطان وغلبة النار على مادة تكوُّنه، نعرض ما أشار اليه الفيلسوف صدر الدين الشيرازي في مسألة كيفية ظهور الشياطين في الجن في بعض الاوقات دون بعض، وعلى بعض أفراد الناس دون بعض، حيث يقول: "فاعلم إن لها وجوداً في هذا العالم الحس، ووجوداً في عالم الغيب والتمثيل، وأما وجودها في هذا العالم، فلما مر إذ ما من جسم له ضرب في اللطافة والاعتدال إلا وله روح يماسبه ونفس فايضة عليه من المبدأ الفعال، ويحتمل أن يكون بسبب ظهور

(١٧) السيوطي، عبد الرحمن جلال الدين: الدر المنشور في التقسير الماثور، دار، الفكر، بيروت، ١٤١٤ هـ، ج٦، ص١٠٦.

الصورة الجنية في بعض الاوقات دون بعض، أن يكون لها أبدان لطيفة مقتصدة في اللطافة، قابلة للتخلخل والتكاثف، فإذا صارت متكاثفة غلظ قوامها فرؤيت، وإذا صارت متخلخلة رقّ قوامها ولطف جسمها وغابت عن الابصار... فإن تمثل الشياطين والجن بصورها المختصة بها للنفوس الناقصة الواهنة الكاهنة، هو من قبيل تمثل الملائكة لجبرائيل وميكائيل بصورها المختصة بها للنفوس الكاملة النبوية، إلا أن المقامات متفاوتة علواً وسفلاً، والاغراض متخلفة خيراً وشراً، وأكثر ما يقع مشاهدة الجن في المواضع المظلمة والغارات والحمامات والآتونات والبوادي والبوادي القفرة والصحاري الخالية والعمارات القديمة، ولعل السبب في ظهور أمثالها وصورها في تلك المواضع، إن النفس إذا كانت مشغولة بأعمال قوة في القوى، ضعف أعمالها لقوة أخرى، إلا أن القوة المتخيلة حيث أنها قوية جداً لقربها من عالم الملكوت، لم تصر معطلة عن شغل النفس بها، فإذا عرض للنفس ضعف، قل اشتغالها بسائر القوى، وانصرف بكلها الى المتخيلة لقوتها، وكذلك أيضاً إذا كان الاشتغال بالحواس الظاهرة قليلاً بسبب ضعفها الفطري او بسبب دهشتها وانزجارها بإدراك الامور المؤلمة او الغير الملائمة، فإن النفس متى وجدت في قوة لذة، توجهت إليها وأكبّت عليها، وإذا وجدت ألماً، توجهت عنها[١٨].

هذا في كيفية ظهورها في بعض الاوقات دون بعض، وعلى بعض أفراد الناس دون بعض، أما في كيفية تمثل الشياطين بصورة فيجيب الفيلسوف صدر الدين الشيرازي قائلاً: «إن الملك والشيطان لهما صورتان هي حقيقة صورتهما، ولا تدرك صورتهما الحقيقية بالمشاهدة إلا أنوار النبوة، فما رأى رسول الله ﷺ في هذه الحياة الدنيا جبرائيل في صورته إلا مرتين، وذلك أنه ﷺ سأله أن يريه نفسه على صورته، فواعده ذلك بحراء، فطلع جبرائيل فسد الافق من المشرق الى المغرب، ورآه مرة أخرى على صورته ليلة المعراج عند سدرة المنتهى، وإنما كان يراه في أكثر الاوقات في صورة الآدمي،

(١٨) الشيرازي، مفاتيح الغيب، (م. س)، ص٢٦٩، ٢٧٩.

وأنه كان يراه في صورة دحية الكلبي، وكان رجلاً حسن الوجه، والأكثر أنه كان يكاشف أهل المكاشفة من أرباب القلوب بمثال صورته، فيتمثل الشيطان في اليقظة، فيراه بعينه ويسمع كلامه، فيقوم ذلك مقام حقيقة صورته، كما ينكشف في المنام لأكثر الصالحين، وإنما المكاشف في اليقظة هو الذي انتهى الى رتبة لا يمنع اشتغال الحواس بالدنيا عن المكاشفة التي تكون في المنام، فيرى في اليقظة ما يراه غيره في المنام، كما روى عن رجل سأله ربه أن يريه موضع الشيطان من قلب ابن آدم، فرأى في النوم جسد رجل شبه البلور، يرى داخله من خارجه، ورأى الشيطان في صورة ضفدع قاعد على منكبه الايسر، بين منكبه وأذنه له خرطوم دقيق طويل قد أدخله في منكبه الايسر الى قلبه يوسوس إليه، فإذا ذكر الله خنس، ومثل هذا ربما يشاهد بعينه في اليقظة، وقد رآه بعض أهل الكشف على صورة كلب جاثم على جيفة يدعو الناس اليها، وكانت الجيفة مثال الدنيا وهذا يجري مجرى مشاهدة صورته الحقيقية، فإن القلب لا بد وأن يظهر فيه حقيقة الشيء من الوجخه الذي يقابل الملكوت، وعند ذلك يشرق نور أثره على الوجه الذي يقابل عالم الملك والشهادة، لأن أحدهما متصل بالآخر، اتتصال هذا العالم بعالم الغيب، واتصال ظاهر الشيء بباطنه، وقد مر أن النفس ذات وجهين: وجه الى عالم الغيب وهو مدخل الإلهام والوحي ووجه الى عالم الشهادة، وهو مصدر الافعال والاعمال، فالذي يظهر منه في الوجه الذي يلي جانب الشهادة، تلا يكون إلا صورة متخيلة، لأن عالم الشهادة كلها متخيلات، لأن الخبال تارة يحصل من النظر الى ظاهر عالم الشهادة بالحس، فيجوز أن لا تكون الصورة على وفق المعنى، حتى يرى شخصاً جميل الصورة، وهو خبيث الباطن قبيح السر، لأن عالم الشهادة عالم كثير التلبيس وأما الصورة التي في الخيال من إشراق عالم الملكوت على باطن سر القلب، فلا تكون إلا محاكياً للصفة وموافقاً في المعنى، لأن الصورة التي في عالم الملكوت تابعة للمعنى والصفة، فلا جرم لا يرى المعنى القبيح إلا بصورة قبيحة، فيرى الشيطان من صورة كلب او خنزير او ضفدع او غيرها، ويرى

الملك في صورة جميلة، فتكون تلك الصورة عنوان المعاني وأمراً محاكياً لها بالصدق، ولذلك يدل القرد والخنزير في النوم على إنسان خبيث، وتدل الشاة على انسان سليم الجانب...»[١٩].

وفي الميزان[٢٠] نقلًا عن تفسير البرهان في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾[سورة الانفال: ٤٨] بإسناده عن يحيى بن الحسن بن فرات قال: سمعت جابر بن عبد الله الانصاري رحمه الله يقول: تمثل إبليس في أربع صور:

تمثل يوم بدر في وجه سراقة بن مالك بن جشعم المدلجي. فقال لقرشي: لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال إني بريء منكم.

وتصور يوم العقبة في صورة منبه بن الحجاج فنادى: إن محمداً والصباة معه عند العقبة فأدركوهم. قال رسول الله صلى الله عليه وآله للأنصار: لا تخافوا فإن صورته لن يعدوه.

وتصور في يوم قبض رسول الله صلى الله عليه وآله في صورة المغيرة بن شعبة، فقال: أيها الناس لا تجعلوها كسروانية ولا قيصرانية وسعوها تتسع فلا تردوا الى بني هاشم فينظر بها الحبالى.

وتصور في يوم اجتماع قريش في دار الندوة في صورة شيخ من أهل نجد وأشار عليهم في أمرهم فأنزل الله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾[سورة الأنفال: ٣٠].

٣. عمل الشيطان:

لقد أخذ الشيطان على عاتقه منذ أن عصى ربّه وامتنع عن السجود لآدم، إظهار التكبر والغرور وأنّه خلقه من نار وخلق آدم من طين، فكانت المعصية الاولى هي القياس، اتخذ الشيطان منذ تلك اللحظة مهمة إغواء بني آدم وإضلالهم وحرفهم عن صراط الله العزيز الحكيم.

إن ذلك المخلوق الشرير يحاول بكل ما أوتي من كيد أن يضل الإنسان عن صراط الله المستقيم وأن يغويهم أجمعين، إلا أنه برغم قدرته هذه وبرغم عهده على نفسه

(١٩) المصدر السابق، ص ٢٧٥ -٢٧٧.
(٢٠) الطباطبائي، الميزان، (م. س)، ج٩، ص١١٠.

والمسؤولية التي ألقاها على عاتقه وإصراره على إضلال بني البشر، فهو لا يتمكن من ذلك من خلال السيطرة عليهم أو التسلط عليهم او غير ذلك من التعابير التي تذكر في حق الشيطان وقدرته على بني الانسان وتنفي بذلك إرادة الانسان نفياً تاماً.

فمما يجب الانتباه اليه ولفت الانظار نحوه أنَّ الشيطان له نحو من التأثير على ارادة الانسان وليس له التأثير التام والكامل، وهذا النحو من التأثير، انما في طول ارادة الانسان واختياره وليس في عرضه، لأنه لو كان في عرض ارادة الانسان او كان له القدرة في التسلط على الانسان واكراهه على المعصية لكان ذلك نحوا من الاجبار على المعصية، وسوف ينتهي بذلك الاختيار وينتفي ويكون ذلك تدخلا مباشرا من الشيطان. والانسان يتحمل في النهاية عاقبة العمل ويكون مأثوما عليه، فهذا بالطبع مخالف للعدالة الالهية ولا يمكن ان يحصل او يكون ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[سورة آل عمران: ١٨٢].

اذن ليس للشيطان أي تأثير مباشر على الانسان، او أي تأثير عرضي انما له تأثير طولي مع ارادة الانسان، وكل ما يقوم به هو عرض السلعة على الانسان -وسلعته الوسوسة -والانسان هو الذي يشتري هذه السلعة ويتفاعل مع هذا العرض ويقوم بالعمل وينفّذ المعصية ويرتكب الخطيئة بمحض ارادته.

هذا من جهة ارادة الشيطان وتأثيره على الانسان، أمّا من جهة عمل الشيطان وسياسته مع بني الانسان، فهي سياسة أوضحها القرآن توضيحا لا لبس فيه، فأثبت في آياته ان الشيطان يعتمد مع الانسان سياسة الخطوة خطوة والمرحلة مرحلة، حيث يقول الله سبحانه وتعالى في محكم كتابه العزيز ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِي ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[سورة البقرة: ٢٠٨].

وفي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ

عَلِيمٌ ﴾[سورة النور: ٢١].

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ﴾ [سورة البقرة: ١٦٨].

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ حَمُولَةٗ وَفَرۡشٗاۚ كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ﴾[سورة الانعام: ١٤٢].

اذن هي سياسة الخطوة خطوة، وليست سياسته دفع الانسان الى المعصية دفعة واحدة أو القاءه في المحرمات مرة واحدة؟. انما هي الاغواء، الاغواء بالوسوسة والعرض والتزيين، فهو لا ييأس بل يبقى يوسوس ويوسوس ويوسوس من دون ان يكلّ او يملّ حتى يغرق الانسان في بحر الدنيا والشهوات والمعاصي ويحوله من ذات خلقت لأجل التكامل والارتقاء الى ذات تتسافل وتنحدر في سلم الحقار والدناءة والحيوانية ويلقيها في دركات الجحيم، فهو مخلص لمهمته أشد الاخلاص، مصرا على بلوغ غايته -الاغواء- وهو لا ينتقل الى الخطوة التالية الا بعد الانتهاء من الخطوة الاولى وتثبيتها وتعويد الانسان عليها فلا يستطيع ان يتركها ابدا، ويستمر من خطوة الى خطوة حتى يصبح الانسان عبدا للشيطان مؤتمرا بأوامره -كل ما يوصل الانسان الى سخط الله -منتهيا عن نواهيه- كل ما يحقق رضا الله سبحانه وتعالى- حتى يوصله الى خطوة ينسيه معها ذكر الله سبحانه وتعالى فلا يعود الانسان قادرا على التوبة والاستغفار والرجوع الى الله جلّ جلاله، ففي الحديث ان ابليس صعد جبلا بمكة يقال له ثوير فصرخ بأعلى صوته بعفاريته فاجتمعوا اليه فقالوا: يا سيدنا لم دعوتنا؟. قال: نزلت هذه الآية فمن لها؟. فقام عفريت من الشياطين فقال: انا لها بكذا وكذا.

قال: لست لها، فقام آخر فقال مثل ذلك، فقال لست لها فقال الوسواس الخناس أنا لها، قال بماذا ؟. قال: اعدهم وامّنيهم حتى يواقعوا الخطيئة فاذا واقعوا الخطيئة انسيتهم الاستغفار فقال: انت لها فوكله بها الى يوم القيامة[٢١].

(٢١) الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، (م.س)، ج٢٠ ص٣٩٨.

وهكذا يقع الانسان في مكيدة الشيطان ويغرق في بحر الذنوب والآثام حتى يطبع على قلبه وسمعه وبصره، ولا يمكنه عندها العودة الى خير ابدا، بل يصبح رجلا من رجال الشيطان وجندا من جنوده، بل شيطانا مستقلا بحد ذاته يوسوس لباقي افراد جنسه من بني البشر، ﴿ٱلَّذِى يُوَسۡوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ [سورة الناس: ٥ -٦]. واخيرا وللأسف بل يا للويل والمصيبة الكبرى عندما يتبرأ الشيطان من ذلك الانسان ويتركه وحيدا في محكمة العدل الالهية، قال تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ إِذۡ قَالَ لِلۡإِنسَٰنِ ٱكۡفُرۡ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٞ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [سورة الحشر: ١٦] فيتخلى عن الانسان ويقف ضاحكا منه شامتا به.

٤. مراحل تأثير الشيطان على النفس الانسانية:

نظرا الى ما قدمناه من ان سياسة الشيطان في اغواء الناس هي سياسة الخطوة خطوة وليست سياسة الدفعة الواحدة، فان للشيطان مراحل متفاوتة ومتعددة ومختلفة في تعامله وتأثيره على بني البشر، وهذه المراحل قد شار اليها القرآن الكريم وعرضها ليكون الانسان على علم ومعرفة دقيقة بهذا المخلوق العجيب والشرير وهذه المراحل هي:

المرحلة الاولى: الوسوسة:

وقد تحدث القرآن عن هذه المرحلة في قوله تعالى:

- ﴿مِن شَرِّ ٱلۡوَسۡوَاسِ ٱلۡخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسۡوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ [سورة الناس: ٤ -٦].
- ﴿فَوَسۡوَسَ إِلَيۡهِ ٱلشَّيۡطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ﴾ [سورة طه: ١٢٠].
- ﴿فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ لِيُبۡدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنۡهُمَا مِن سَوۡءَٰتِهِمَا﴾ [سورة الاعراف: ٢٠].

وهذه المرحلة -الوسوسة -هي مرحلة يكون فيها عمل الشيطان مقتصراً على العرض فقط، فهو يعرض على البشر بضاعته، يعرض عليهم الضلال والانحراف عن الصراط المستقيم من خلالها ما يقدمه

من صور خيالية تدخل في قوة الوهم عند الانسان فان ميدان عمل الشيطان وتأثيره هو في العرض على قوة الوهم والخيال عند الانسان وليس لديه اية مساحة اخرى يمكنه من خلال ان يخترق الانسان ويصل الى تحقيق هدفه، اما القوى العقلية المجردة (العقل) فهي خارجة عن تخصص الشيطان ولا يستطيع ان يسيطر عليها لأنه مخلوق مثالي وعالمه عالم برزخي لا يقوى على الوصول الى رتبة التجرد العقلي التي لدى الانسان، فالوسوسة مجرد عرض.

وبحسب القرآن الكريم، فان اول وسوسة كانت وسوسة الشيطان للنبي آدم عليه السلام حيث عرض عليه شجرة الخلد وملك لا يبلى، فبدأ الشيطان هذه المرحلة وهذا الاسلوب منذ تلك اللحظة، لحظة الغواية الاولى والضلالة الأولى، واستمر هكذا مع سائر بني البشر من ولد آدم عليه السلام.

إذن فمشكلة الوسوسة هي مشكلة ترافق كل إنسان، ما دام الإنسان إنساناً وما دام الشيطان عدواً يحيط به ويتربص به عند كل طريق، الا انها تختلف وتتفاوت من إنسان إلى آخر ومن آدمي الى آخر، بحسب قدرة الشيطان على السيطرة على قوتي الوهم والخيال عند الانسان وبحسب قدرة الانسان على نبذ تلك الصور الخيالية ومواجهة هذه القوة الشيطانية.

ومن اراد الوقوف على هذه المشكلة- الوسوسة -فلها مصاديق ومظاهر متعددة وميادين مختلفة.

فإن الوسوسة التي كان يعمل عليها الشيطان في بداية الدعوة الاسلامية هي الوسوسة العقدية الفكرية حيث حاول الشيطان ان يدخل خيال الانسان ووهمه ويصور له أنّ الاسلام هو دين لتقييد الانسان وتحديد حريته والتضييق عليه بأعمال وعبادات لا فائدة منها، وانه دين يريد ان يلقي بالانسان الى التهلكة من خلال ما يدعو اليه من افكار الجهاد والقتال في سبيل الله وغيره، وانه دين شأنه ان يأخذ اموال الناس وينقصها من خلال ما فرضه من فروع- الزكاة والخمس والصدقات وغيرها -حتى استطاع الشيطان من خلال تلك التصويرات ان يمنع الكثير من الدخول الى حصن الاسلام المنيع والبقاء على الكفر الوضيع.

وهناك ما يمكن ان نطلق عليه اسم الوساوس العملية وهي الوساوس التي يواجهها الانسان في حياته العملية حيث يعلق الكثيرون في شباك وسوسة الشيطان في اثناء وضوئهم وصلاتهم وصومهم وشؤون حياتهم كافة وهذا نشاهده واضحا جليا بين اخواننا المؤمنين الذين يظنون ان الايمان في كثرة صبّ الماء اثناء الوضوء او التركيز الدقيق على مخارج الحروف اثناء الصلاة مما يستدعي إعادة الكلمات أكثر من مرة مما يخرج الصلاة عن صورتها وحقيقتها وربما يضطر الى اعادة الصلاة بأكملها، وكذلك في الكثير من امور الطهارة والنجاسة، فقد اكد اهل البيت عليهم السلام ان هذا من وسوسة الشيطان.

فقد ورد عن الامام الصادق عليه السلام ان رجلا حدثه عن شخص مبتلى بالوسوسة في الوضوء والصلاة فقال له الامام عليه السلام انّ هذا الرجل يعبد الشيطان، فتعجب السائل، وقال له: كيف يعبد الشيطان، فقال الصادق عليه السلام اسأله من اين يأتيه ذلك؟. فإنه سيقول لك من الشيطان[٢٢].

ومما يمكن ان يوسوسه الشيطان هي الوسوسة الاجتماعية وهي عبارة عن الشك بالناس وسوء الظن بهم وحملهم على الاسوأ دون الاحسن ورؤية الجوانب المظلمة في الآخرين فقط.

المرحلة الثانية: النزغ:

يقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٌ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[سورة الاعراف: ٢٠٠].

- ﴿ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٗا مُّبِينٗا ﴾ [سورة الاسراء: ٥٣].

- ﴿ .. مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ .. ﴾[سورة يوسف: ١٠٠].

والنزع شبه الوخز والطعن، طعنه بيده او برمح[٢٣]، وهو حالة استفزاز الشيطان للانسان، حيث يقول تعالى: ﴿ وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ

(٢٢) الكليني، محمد بي يعقوب: الفروع من الكافي، ج١٠، ص١١، باب عدم جواز الوسوسة في النية والعبادة.

(٢٣) ابن منظور، لسان العرب، ج١٤، ص١٠٨.

وَٱلۡأَوۡلَٰدِ ﴾[سورة الاسراء: ٦٤].

فهو في هذه المرحلة أشد من المرحلة السابقة، فقد انتهت مرحلة اللطف واللين والسلاسة في العرض، وحلّت محلها مرحلة العنف والصرخ والمس والاستفزاز والمشاركة في كل شيء، في الأموال والأولاد وغير ذلك فهو ينزع البدن المثالي للإنسان وليس البدن المادي يتحرك ويحركه في عالم المثال ويؤثر فيه شيئاً فشيئاً.

المرحلة الثالثة: مرحلة تلقي الاوامر الشيطانية:

في هذه المرحلة يصبح الانسان مأموراً للشيطان، يعمل بأوامره وينتهي عن نواهيه ويصبح قالبا لتلقي الاوامر الشيطانية بعد ان كان قالبا للرحمة الالهية، فالانسان في هذه المرحلة يحتجب عن طاعة الله ويتجه نحو الاستعداد الكامل والتام لمعصيته والتعرض لسخطه وغضبه تعالى، فهي بداية مرحلة الهاوية والهلاك، ويصور الله تعالى هذه المرحلة من خلال قوله تعالى في العديد من الايات القرآنية الكريمة:

-﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ ﴾ [سورة النور: ٢١].

-﴿ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِ.. ﴾[سورة البقرة: ٢٦٨].

-﴿ وَلَأُضِلَّنَّهُمۡ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمۡ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلۡقَ ٱللَّهِ ﴾ [سورة النساء: ١١٩].

وبرغم خطورة هذه المرحلة وابتعاد الانسان عن طاعة الله سبحانه وتعالى ليصبح متلقياً للأوامر الشيطانية، الا ان ذلك لا يعني ان الانسان قد وقع في شباك الشيطان واصبح فريسة جاهزة له وليس له بعد ذلك الا اليأس والقنوط لفوات الاوان وعدم القدرة على التصحيح والرجوع.

بل على العكس من ذلك فان الانسان في هذه المرحلة يبقى ممتلكا القدرة على التوبة والعودة الى الصراط المستقيم وذلك بعد ان يُعمِل عقله ويغلب العقل على قواه الشهوانية وغرائزه الشيطانية بالقضاء على قوتي الوهم والخيال والسيطرة التامة للعقل عليهما، يقول الله سبحانه وتعالى ﴿ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم

بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾[سورة البقرة: ٢٦٨].

وهذه المرحلة لهي أشدُّ من سابقاتها والوصول إليها عبارة عن نجاح الشيطان في المرحلة السابقة، فاذا امتثل الإنسان للشيطان وغلبت قوته قوة العقل واصبح الانسان اسير هواه عندئذ يكون الانسان قد بلغ هذه المرحلة ويكون الشيطان قد حقق نجاحه في تفعيل النفس الأمارة بالسوء لدى الانسان، فتكثر نفسه من اطاعة الشيطان وتنفيذ اوامره الصادرة الى ذلك المسكين، قال تعالى ﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [سورة يوسف: ٥٣].

ففي هذه المرحلة يصبح الانسان مأموراً للشيطان فيطمع به أكثر من المراحل التي سبقتها لأنه ما إن نفّذ أمراً له طمع في الثاني، والثاني يجرّه الى الثالث وهكذا تتوالى الأوامر حتى يصبح الانسان عبداً للشيطان، لذا ينبغي التمرّد عليه وعدم طاعته منذ الأمر الاول، فقد ورد عن الامام الصادق عليه السلام أنّه قال: «لا تعوِّدوا الخبيث من أنفسكم» أي لا تمكنوا الشيطان من أنفسكم ولا تطيعوه ولا تستجيبوا له في تنفيذ أوامره.

أما إذا أصبح الانسان مطيعاً لأمره وأصبح تنفيذ الاوامر ملكة لدى النفس الانسانية أصبحت تلك النفس أمّارة بالسوء، أي كثيراً ما تمتثل لأوامر الشيطان فعندها ينتقل الإنسان الى المرحلة التالية وهي أشد خطراً وضرراً

المرحلة الخامسة:

مرحلة التسلُّط والسلطان:

وهذه المرحلة كما أشرنا تبدأ بعد تفعيل الشيطان للنفس الأمّارة بالسوء عند الانسان، وبعد أن يصبح تنفيذ الأوامر وإطاعة الشيطان ملكة وسجية لدى الانسان، وهي مرحلة يكون فيها أقرب الى الهلاك والانصياع التّام للشيطان، يقول سبحانه من قائل: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴾ [سورة النحل: ٩٨ – ١٠٠] ويقول: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ

﴿ أَتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾[سورة الحجر: ٤٢].

الذين يتولونه من الموحدين: ﴿ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ .. ﴾ المشركين: ﴿ .. وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴾.

فمن خلال هاتين الآيتين الكريمتين يتضح لنا أن سلطانه إنما يكون على طائفتين من الناس:

ولا يظنّن أحد أن هذا التسلط هو نفي لإرادة الإنسان وسيطرة الشيطان فقط، إنما هو تجلي تسليط من الانسان لا تسلّط من الشيطان، وبعبارة أخرى هي سلطة يملكها الانسان من نفسه فيملِّكها الشيطان وليس الشيطان يملكها عليه من نفسه حيث إن الانسان يسلِّم بيده زمام انقياده للشيطان، وإبليس إنما ينفي التسلط الذي يملكه من نفسه لا ما يسلطونه على أنفسهم بالانقياد بقرينة قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم ﴾[سورة ابراهيم: ٢٢].

المرحلة السادسة:

بلوغ مرحلة ولاية الشيطان.

وهذه هي المرحلة الاخيرة، مرحلة انتصار الشيطان على خصمه الانسان حيث يصبح الانسان فيها وليّاً من أولياء الشيطان بدل أن يكون وليّاً من أولياء الله سبحانه وتعالى، ويكون فيها على طرف نقيض مع أولياء الله، مرحلة يعلن فيها الانسان التسليم والخضوع المطلق للشيطان قائلاً أنا عبد من عبيدك ويشهد بأن الشيطان معبوده، ويتحدث القرآن عن هذه المرحلة وعن أولياء الشيطان في آيات عديدة منها:

﴿ .. إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ .. ﴾[سورة الاعراف: ٣٠].

- ﴿ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴾ [سورة النحل: ١٠٠].
- ﴿ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾[سورة النساء: ٧٦].
- ﴿ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ﴾[سورة النحل: ٦٣].
- ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [سورة آل عمران: ١٧٥].

لقد وقعت ايها الانسان في شباك الشيطان، لا بل اصبحت من عبيده وجنوده واصبحت ذاتك فانية مندكة في الذات الشيطانية، فأصبحت تنظر بنظر الشيطان وتسمع بسمعه وتنطق بنطقه.

وأجمل وصف لهذه المرحلة، ما قاله امير المؤمنين علي بن ابي طالب عليه السلام «اتخذوا الشيطان ملاكاً، واتخذتم له إشراكا، فباض وفرّخ في صدورهم، ودبّ ودرج في حجورهم، فنظر باعينهم ونطق بألسنتهم، فركب بهم الزلل، وزين لهم الخطل، فعل من قد شركه الشيطان في سلطانه ونطق بالباطل على لسانه»[٢٤].

ايها الانسان، ايها المسكين التائه، الغارق في بحر الضلالة، ان رحمة الله واسعة، فاخلع عنك رداء الشيطنة، وانفر من الهك -هواك- واعلن التمرد والعصيان على معبودك، فان طريق الرجعة والعودة مفتوحة وابواب التوبة مشرعة فلا تيأس ولا تقنط بل عد الى عبادة الله الواحد الاحد وارفع يديك متضرعا، وقد بللت دموعك خديك وارعشت خشيتك رجليك قائلا «الهي قد استحوذ عليّ عدوك الذي استنظرك لغوايتي فأنظرته واستمهلك الى يوم الدين لإضلالي فأمهلته فأوقعني وقد هربت اليك من صغائر ذنوب موبقة وكبائر أعمال مردية...»[٢٥].

(٢٤) نهج البلاغة، الخطبة ٧، في ذم اتباع الشيطان، ٤١.

(٢٥) الامام علي بن الحسين، زين العابدين عليه السلام: الصحيفة السجادية، دعاؤه بعد الفراغ من صلاة الليل لنفسه، ص١٤٧.